

علاقة الإعجاز اللغوي بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم (رؤية في ضوابط الفهم وتحليل النص)

الدكتور عبد الله علي عبد الله الهتاري
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

الملخص:

الأهداف: يهدف هذا البحث إلى معرفة العلاقة البارزة بين الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي، من حيث إن اللغة هي بوابة الفهم لألفاظ الإعجاز العلمي والولوج إليه من خلالها؛ لأنّ البيان القرآني يستخدم الألفاظ والتراكيب اللغوية بدقة وعمق؛ ممّا جعلها تفصح عن دلائل الإعجاز وإشاراته العلمية الدقيقة للفهم.

المنهجية: سلك الباحث المنهج التحليلي للمفردات والتراكيب اللغوية؛ لأنّ التحليل اللغوي الدقيق والعميق لها من خلال دلالة السياق، للآيات الكونية؛ من أهم الضوابط لفهمها، وفق الحقيقة العلمية الموصلة إليها.

الخلاصة: خلص الباحث إلى أنّه من خلال فهم النظم القرآني المعجز نصل إلى فهم الإعجاز العلمي في آيات القرآن الكريم، وأنّ الإعجاز اللغوي؛ هو بوابة فهم الإعجاز العلمي على وجه الخصوص، وسائر وجوه الإعجاز عموماً.

فهذا البحث يمثل دراسة نظرية تطبيقية مباشرة؛ للوقوف على مظاهر هذه العلاقة، من خلال رؤية منهجية علمية، تجمع بين ضوابط الفهم، وتحليل النص.

المقدمة:

يمثل الإعجاز اللغوي الركيزة الأساسية في فهم التحدي القرآني، وأن مصدره إلهي رباني، ليس في مكنة البشر مطلقا الإتيان بمثله، فهو معجزة لغوية بيانية خالدة على مر العصور والأزمان، وهذه المعجزة اللغوية تنزلت على أمة ذات فصاحة وبلاغة وبيان، ساقها القرآن الكريم من أزمة ألسنتها إلى محاريب الإيمان. ولكن المعجزة اللغوية ليست قاصرة على أفهام العرب الذين تنزل عليهم هذا البيان الإلهي المعجز، بل هو للبشرية كافة رسالة إلهية عامة، مصداقا لقوله تعالى : قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وعالمية القرآن تقتضي عالمية الخطاب الإلهي لجميع الناس، وأن يقيم دلائل إعجازه وإثبات مصدريته أنه من عند الله للبشر جميعا من خلال معجزة متضمنة فيه تقيم الحجة عليهم في مختلف العصور والأزمنة والأمكنة.

لذلك تضمن القرآن وجوها إعجازية متنوعة ومتعددة، مفتاحها البيان العربي الذي أنزل به، متضمنا وجوه الإشارات العلمية والمعارف الكونية التي تكشف للإنسانية في عصور العلم والدراسات الكونية؛ مما يقطع ذلك يقينا أن هذا القرآن يستحيل أن يكون من كلام بشر يعجز عن الوقوف على هذه العلوم والمعارف العلمية في الكون كشف عنها العلم الحديث متأخرا بعد قرون من الزمن من نزول القرآن؛ لذلك أصبح من وجوه الإعجاز في القرآن ما يسمى بالإعجاز العلمي.

مشكلة البحث وأهميته:

لقد شاعت دراسات الإعجاز العلمي في هذا العصر؛ لكثرة الاكتشافات العلمية، وأصبح الإعجاز العلمي لدى الباحثين فيه هو لغة العصر، التي يخاطبون بها المجتمعات غير المسلمة؛ لإثبات إعجاز القرآن، لكن هذه الدراسات مع كثرتها أصبحت في حاجة ملحة لضوابط تضبطها؛ لأهمية اتصالها بالنص القرآني الحكيم؛ فلا بد من خضوعها لضوابط التفسير عموما، والتفسير العلمي خصوصا، من حيث الانضباط بحقائق العلم لا نظرياته.

وغلب على كثير من هذه الدراسات التكلف في الرأي، والتعسف والتمحل في التحليل؛ بعيدا عن دلالات اللغة وضوابطها - كما ستأتي الإشارة إليه في موضعه من البحث - وهذا لا يجوز مطلقا في تأويل آيات القرآن، فقد عرض علماء التفسير وعلوم القرآن ضوابط التفسير عموما، والذي يعنينا هنا الأسس اللغوية الضابطة لفهم الإشارات العلمية في آيات القرآن الكريم؛ لأنه النص الإلهي المعجز، واللسان العربي، هو بوابة فهمه، وفق معهود اللسان العربي عند التنزيل.

وتكمن أهمية هذا البحث أيضا من منطلق الدراسات البينية التي تعنى بالتداخل المعرفي بين وجوه الإعجاز، ووسائل الوقوف عليه، من خلال إبراز العلاقة الوثيقة بين الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي؛ لنؤكد بذلك أنَّ الإعجاز العلمي هو في أصله إعجاز لغوي؛ إذ اللغة هي الكاشفة عنه، والضابطة لفهمه.

منهج البحث:

ينطلق البحث من المنهج التحليلي للمفردات والتراكيب اللغوية؛ لأنَّ التحليل اللغوي الدقيق والعميق للمفردات، والتراكيب، ودلالة السياق، للآيات الكونية؛ من أهم الضوابط لفهمها، وفق الحقيقة العلمية الموصلة إليها، ومن ثمَّ عرض رأي دارس الإعجاز العلمي، وفق هذه الضوابط التحليلية في فهم سياق الآية، ومعرفة المقبول من الرأي، وغير المقبول منه، على وفق تلك الضوابط اللغوية.

الدراسات السابقة:

كثرت الدراسات التي تناولت مظاهر الإعجاز العلمي في العصر الحديث، في بحوث علمية، ودراسات جامعية، وموسوعات علمية، من ذلك (دور الحقائق العلمية في توجيه دلالة النص القرآني)، للدكتور رياض السواد، و(المفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي)، للدكتور أحمد عبابنة، و(ألفاظ الإعجاز العلمي في علوم الطب في القرآن الكريم)، للدكتور هوازن أحمد، و(الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم). للدكتور فهد خليل زايد، و(موسوعة الإعجاز العلمي)، للدكتور زغلول النجار، و(موسوعة الإعجاز العلمي) لمحمد راتب النابلسي، وغيرها الكثير من الدراسات في الإعجاز اللغوي والعلمي.

والذي يعنينا في هذا البحث هو محاولة الربط بين دلالة المفردة والتركيب اللغوي وما يشير إليه من مظاهر الإعجاز العلمي، والضوابط اللغوية في ذلك بالدراسة والتحليل؛ لأنَّ بعض الدراسات قد تشير إلى الظاهرة العلمية، في تكلف أحيانا وتمحل، لا يساعدها على ذلك التحليل اللغوي والعمق البياني. وهذا ما يهدف إليه البحث في العرض لنماذج من ذلك بإيجاز، وسأحاول الاقتصار على أهم الأسس اللغوية في ذلك، مع بعض النماذج التحليلية؛ لأنَّ هذه ورقة علمية موجزة، لا تحتل التوسع والاستطراد.

خطة البحث:

اقتضى موضوع البحث تقسيمه إلى مقدمة، ومبحثين وخاتمة؛ على النحو الآتي:
المقدمة: وفيها عرض موجز لمشكلة البحث وأهميته، ومنهجه، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: يمثل الجانب النظري، ويتكون من ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: تعريف الإعجاز العلمي والإعجاز اللغوي.

المطلب الثاني: علاقة الإعجاز اللغوي بالإعجاز العلمي.

المطلب الثالث: ضوابط للإعجاز العلمي.

المبحث الثاني: يمثل الجانب التطبيقي التحليلي، ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: نموذج للتفسير العلمي غير المقبول.

المطلب الثاني: نموذج للتفسير العلمي المقبول.

الخاتمة: وفيها عرض لأهم النتائج التي توصل إليها البحث من خلال العرض والتحليل، مع ذكر أهم التوصيات.

المصادر والمراجع: وفيها ذكر لأهم المصادر القديمة، والمراجع الحديثة، والدراسات المعاصرة.

المبحث الأول: التعريفات والضوابط.

سأعرض في هذا المبحث أهم التعريفات لمصطلحي الإعجازين، اللغوي والعلمي، والعلاقة بينهما، والأسس اللغوية الضابطة؛ لفهم إشارات الإعجاز في الآيات الكونية، وفق الحقائق العلمية، التي بحثها علماء الإعجاز العلمي.

المطلب الأول: تعريف الإعجاز العلمي والإعجاز اللغوي.

المقصود بالإعجاز العلمي في القرآن: "هو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية، في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم". (الزندانى، عبد المجيد. الإعجاز العلمي تأصيلاً وفهماً ص ١٣. يوليو ١٩٩٥)

وهذه الإشارات العلمية لم تفهم إلا في عصور متأخرة من الزمن كشف عنها العلم الحديث، وتحدث عنها القرآن الكريم ببيانه الدقيق؛ لذلك كان الإعجاز اللغوي هو الكاشف عن حقائق الإشارات العلمية الإعجازية في القرآن الكريم؛ بوسيلة اللغة والبيان المعبر عن ذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى التفريق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي، فبينهما عموم وخصوص، فالإعجاز العلمي يقوم على الحقائق العلمية الثابتة، أما التفسير العلمي فقد تستعمل فيه النظريات العلمية، فيكون التفسير العلمي أعم، والإعجاز العلمي ثمرته، وغايته وأخص منه. (سقا، مرهف عبد الجبار. التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص ١١٩)

"فاحتواء القرآن الكريم على حقيقة علمية ومطابقتها لما أثبتته العلم، مما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في زمن نزوله، ولم تُعرف إلا في العصر الحاضر، بعد قرون طويلة من نزول القرآن؛ هو الإعجاز العلمي. وشرح الآية وفق معطيات هذه الحقيقة العلمية: هو التفسير العلمي". (مهدي، خالد. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص ١٧)

وأما المقصود بالإعجاز اللغوي: "فهو العلم الذي يهتم بإبراز إعجاز المفردة القرآنية من حيث شكلها ومضمونها وغايتها. ونقصد بشكل المفردة القرآنية كل ما له علاقة بمظهرها من الجانب الصوتي فيها من تناسق الحروف في مخارجها وصفاتها، وكذا من جانب صيغتها الصرفية وموقعها الإعرابي، والمفردة القرآنية في النهاية تحقق أمرين: الأول الوفاء بحاجة النفس الإنسانية كونها وازنت بين عقل المخاطب وعاطفته، والآخر أنها أعجزت الثقلين؛ لأنها تحدتهم في إطار محدود لا يعدو أن يكون حروفاً وأصواتاً من جنس ما به ينطقون، ولكنها مع ذلك تحمل دلالات كثيرة، يستحيل عليهم مجاراتها فيه" (حذيق، العيد. جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، ص ٣٧)

فالإعجاز اللغوي يعنى بالمفردة القرآنية، في إيقاعها الصوتي وإيحائه، ودقة اختيارها في السياق الذي وردت فيه؛ بحيث لا يمكن أن يحل محلها مفردة أخرى من اللسان العربي كله؛ لتؤدي المعنى الذي قصدته في السياق، فهي عاشقة لمكانها، ولها دلالتها المعجمية، وصيغتها الصرفية، وتماسكها المعنوي بما قبلها وما بعدها في النظم والتركيب، ذات حمولة دلالية عميقة ودقيقة؛ تدهش المتلقين، وتكشف عن دقائق الإعجاز. المطلوب الثاني: علاقة الإعجاز اللغوي بالإعجاز العلمي.

إنَّ العلاقة بين الإعجاز اللغوي والعلمي بارزة واضحة جلية؛ فالإعجاز الذي وقع به التحدي أصلاً هو البيان، الذي تحدى الله به العرب حملة البيان واللغة والشعر، إذ تحداهم من جنس ما مهروا فيه وعرفوه؛ فإذا عجزوا وقد كان؛ فمن دونهم من الأمم اللاحقة والمتعاقبة في البلاغة واللغة أضعف وأعجز.

فالإعجاز البياني مهيمن على وجوه الإعجاز الأخرى المنطوية في ظلاله، تكشف عنه المفردة القرآنية في عمق دلالتها في الأسلوب القرآني المعجز؛ لذلك يرى العلامة القرضاوي -رحمه الله- "أنَّ الإعجاز العلمي هو لون من الإعجاز البياني للقرآن، فالإعجاز هنا يكمن في الصياغة القرآنية العجيبة للآيات، أو أجزاء الآيات، التي تتناول هذه الشؤون التي لها صلة بالعلم، أو بالآفاق والأنفس، كما أشار إلى ذلك القرآن حيث قَالَ تَعَالَى: □□□□□□□□□□ فصلت: ٥٣

ذلك أنَّ العبارة القرآنية أو الجملة القرآنية، قد جعل الله فيها من المرونة والسعة بحيث يفهمها العقل العربي العادي في عصر نزول القرآن، ويجد فيها المسلم ما يشبع فيها فكره ووجدانه معاً، بالفهم الفطري السهل الميسر لكل قارئ للقرآن، ومع هذا أودع الله الجملة القرآنية من السعة والخصوبة ما يتسع لما يكشف عنه الزمن من حقائق، وما يبلغه العلم من تطور وتقدم، كما نشاهد في عصرنا" (القرضاوي، يوسف. كيف نتعامل مع القرآن العظيم. ٣٩٧)

وهنا يظهر التكامل بين الإعجاز اللغوي والعلمي؛ إذ الإعجاز العلمي لا يعبر عنه إلا بالإعجاز اللغوي، الذي يقوم بوظيفة تجسيد الإعجاز العلمي، "فإذا كان الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فإن

الإعجاز اللغوي هو لغة القرآن الكريم في التعبير عن الحقائق بمفردات في منتهى الدقة، تجمع بين الجمالية الصوتية، والخصوصية السياقية، يعجزُ البشر عن الإتيان بمثله؛ وهذا دليل على أنه لا يمكن لمعجزات القرآن العلمية أن تتجلى لأهل العلم؛ لولا تجليها في إعجازه اللغوي، فهذا الأخير هو الذي يكشف أسرار القرآن الكريم العلمية" (حوبان، خديجة. الإعجاز اللغوي والعلمي للمفردات القرآنية ٣٤٨)

وقد وضح د. جعفر دك الباب السبيل لفهم أسرار الإعجاز العلمي حين قال إن: "القرآن عربي وأنزل بلسان عربي مبين... ومن أجل فهم أسرار إعجازه العلمي لا بد من التعمق في فهم المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية، مع تأكيد إنكار ظاهرة الترادف والبحث في الفروق الدقيقة بين ما يظن أنه من المترادفات." (دك الباب، جعفر. الوجيز في المنهج المعين على كشف أسرار اللسان العربي المبين ٨١٩)

فاللغة العربية بمفرداتها وأساليب بيانها مهمة لفهم دلالات القرآن، لكل دارس له، باحث في وجوه إعجازه، تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: "وقد يلفتنا أن أكثر المحدثين ممن خاضوا في مجال التفسير العلماني (نقصد العلمي) وصنفوا الكتب في القرآن والعلوم، ردوا النظريات والكشوف العلمية في عصرنا إلى أصول لها في القرآن، وليسوا من أهل الاختصاص في الدراسة القرآنية وعلوم العربية والإسلام، وطالما نبه علماء الدراسات القرآنية إلى ما ينبغي لكل دارس يتعرض لشيء منها، من اختصاص بالعربية وفقه لأساليب كلامها، وإطلاع على طرق المتكلمين وأصول الدين" (بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٩٧)

المطلب الثالث: ضوابط للإعجاز العلمي

لقد نص العلماء والباحثون في مجال الشريعة والإعجاز على كثير من الضوابط التي لا بد منها، لضبط فهم تفسير الآيات، التي وردت فيها إشارات علمية؛ لتفصح عن الإعجاز العلمي فيها، وهذه الضوابط تعصم من الزلل، والتمحل، والتكلف في لي أعناق النصوص، والخروج عن دلالة النص القرآني، الذي أنزله الله معجزة ومنهجاً في الوقت معاً. (ينظر في هذه الضوابط: القرضاوي، يوسف. كيف نتعامل مع القرآن العظيم. ٣٨٢. القاهرة. دار الشروق. ٢٠٠٠. ونجم، السيد سيد أحمد. القواعد التفسيرية المتعلقة بالإشارات العلمية للقرآن الكريم: جمعا ودراسة ونقد ٩. مجلة العلوم الإسلامية الدولية. جامعة المدينة العالمية. ماليزيا. مج ٢٤. ٢٠٢٠. وسقا، مرهف عبد الجبار. التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص ١٩٧. دمشق. دار محمد الأمين. ٢٠١٠)

وحذر العلماء من التكلف في الإعجاز العلمي، يقول الدكتور القرضاوي: " وكل ما أحذر منه هنا ما يقوم به بعض الكاتبين المتعجلين، من افتعال وتمحل، لاستخراج معنى من آية يدخل في الإعجاز العلمي، وهو

معنى مقحم على الآية متكلف لا ينبغي حمل كلام الله عليه" (القرضاوي، يوسف. العقل والعلم في القرآن الكريم ٢٩٢)

ومثل القرضاوي - رحمه الله - على هذا التمثل الخارج عن دلالة النص القرآني في اللغة والسياق، بقوله: "وذلك مثل قول بعضهم: في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [النساء: ١]

ففسر النفس الواحدة بـ "الإلكترون" في الذرة، وزوجها الذي خلق منها بـ "البروتون"! وهو اعتساف لا تدل عليه الألفاظ ولا السياق، بل السياق يرفضه تماماً؛ بدليل قوله في تنمة الآية: (وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) والذي يعنينا في هذا البحث كثيراً تلك الضوابط اللغوية، التي لها علاقة بفهم دلائل الإعجاز اللغوي والعلمي معاً، فاللغة هي السبيل الدقيق والعميق لفهم دلالة النص المعجز، وهي الطريق الموصل لفهم دلالات الألفاظ والتراكيب؛ الموصلة للكشف عن مواطن الإعجاز بدقة وعمق.

فيجب على الباحث في مجال الإعجاز العلمي أن يكون على مكنة كبيرة من فهم اللغة العربية في دلالات الألفاظ والتراكيب، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، ﴿...﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]

ومن أهم الأسس اللغوية الضابطة لتفسير الإعجاز العلمي، ما يمكن إيجازها على النحو الآتي:

- ١- مراعاة معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي.
- ٢- "التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا خرج بالقرآن عن قواعد اللغة العربية، ومدلولات مفرداتها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن على اصطلاح حادث" (الناقلي، محمد راتب. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ١/١٧)؛ لذا يجب أن تُحمل المعاني اللغوية في القرآن الكريم على ما هو معهود في عصر النبوة، ولا يحمل على التطور الدلالي الذي حدث بعد ذلك.
- ونجد بعض المفسرين العلميين قد حمل بعض ألفاظ القرآن الكريم على الاصطلاح الحادث، أني لم يكن معروفاً وقت نزول القرآن الكريم، من ذلك في قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ فِيهِمْ رِجَالًا﴾ [الرحمن: ٣٣]

فقد جاء في معاجم اللغة أن معنى الأقطار "هي النواحي" (الفرايدي، (الخليل. العين، قطر. ٥/٩٦)، وفسر بعض دارسي الإعجاز العلمي من المعاصرين الأقطار بالدول فنكر: "أن الخالق سبحانه وتعالى شبه الكواكب والأقمار في السماوات بالأقطار، وهذا تشبيه دقيق جداً وعلمي فلم يقل دولاً، بمعنى أن الدول وحدات مستقل بعضها عن بعض، بينما الأقطار وحدات غير مستقلة عن بعضها تماماً، وإنما لها قوانين وروابط تخضعها للمركز، وهذا ما هو حاصل فعلاً، في المجموعات الكونية" (العبدلي، فاروق الشيخ. نظرة علمية للكتب السماوية ٦٢) ولا يوجد في المعاجم من استعمل كلمة

الأقطار بمعنى الدول، كما هو معروف في وقتنا الحاضر، فهذا المعنى طارئ على الكلمة، وناتج عن التطور الدلالي لألفاظ اللغة.

وانتقد الدكتور يوسف القرضاوي في هذا السياق، من زعم أن القرآن أشار إلى فكرة تحطيم الذرة إلى ما هو أصغر منها، في قوله تعالى: ﴿لَخَلِدُهَا حِمْمًا فَتُعَزَزْنَ حَتَّىٰ خِلَافُ نَارٍ كَالَّذِي لَا تَأْتِي الْبُحَارَ إِلَّا بِسُحَابٍ مِمَّنْ سُحَابُ الْعَذَابِ فَتُنَادُونَ عَالِيَهِمْ إِيَّاهُ يَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُمْ فِيهَا شُهُوبٌ فَتُلْقَوْنَ فِيهَا قُحُوفُ النَّاسِ﴾ [يونس] بقوله: " إِنَّ كَلِمَةَ "ذَرَّةٌ" عند العرب في عصر نزول القرآن، وبالتالي في القرآن؛ لا تدل على المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه اليوم في علم الفيزياء، ولا يجوز أن نحمل ألفاظ القرآن على المصطلحات الحادثة بعد عصر نزوله؛ لأنَّ ذلك يعد شروءًا عن المنهج القويم في الفهم والاستنباط" (القرضاوي، يوسف. العقل والعلم في القرآن الكريم ٢٩٣). وهو ما انتقدته أيضا عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي عند ذكرها قول المفسرين في معنى الذرة: " قيل هي النملة الصغيرة، وقيل: الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء...والأقوال قريبة، ولا شيء منها بموضع إنكار، كالذي جاء به محدثون من بدع التفسير العصري، فذهبوا إلى أنه الذرة التي أكتشف العلم سرها في القرن العشرين!!" (بنت الشاطي، عائشة عبد الرحمن. التفسير البياني للقرآن الكريم ٩٧/١)

وإنه لمن العجب حقا أن يعتمد كاتب في العصر الحديث؛ متكفا التفسير العلمي، لقوله تعالى: ﴿الزَّلَازِلُ﴾ [الزلزلة] فيزعم أن ذلك يعني: استخراج البترول والغاز وهو أعظم ثقل في الأرض! (الغماري، مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ١٦)، إذ كيف يقول هذا من لديه أدنى معرفة باللغة والسياق؟ فالسياق اللغوي للآيات يتحدث عن أهوال يوم القيامة وزلزلة الأرض الزلزال الكوني المدمر الذي لا مثيل له؛ بدلالة التوكيد بالمفعول المطلق المؤكد لعامله "زلزالها"، وحالة الهلع والذعر التي تحيط بالناس فيقولون: مالها؟ ثم أوضح السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿الزَّلَازِلُ﴾ [الزلزلة] فالسياق كله حديث عن أهوال القيامة ودمار الكون!

ثم إنَّ الآيات التي تتحدث عن المعجزات كفلق البحر وعصا موسى وولادة عيسى... وأحداث البعث والنشور والقيامة والعذاب والملائكة... لا تخضع للتفسير العلمي.

٣- المشترك اللفظي والترادف في الألفاظ:

والمقصود بالمشترك اللفظي: هو " اللفظ الدال على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل اللغة" (السيوطي، المزهري في علوم اللغة ١/ ٣٤٩)

ويرى علماء اللغة أنه إذا أمكن حمل المشترك اللفظي على جميع معانيه، من دلالة السياق؛ فهو من مظاهر اتساع المعنى في القرآن الكريم، (ينظر: ابن جني، الخصائص ٢/ ٤٨٨)، وهو الأصل، إلا إذا دل السياق على معنى مخصوص حمل عليه، فالسياق اللغوي في النص هو الكاشف عن ذلك.

يقول ابن عاشور عند قوله تعالى: □□□ [الرحمن]: "وَجُعِلَ لَقَظُ النَّجْمِ واسطة الانتقال لصلاحيته؛ لأنه يُرادُّ منه: نُجُومُ السَّمَاءِ، وما يسمى نجماً من نبات الأرض" (ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٧/٢٣٥) فدل النظم القرآني البديع في هذا السياق الفريد، أنَّ كل المخلوقات تسجد لله صغيرها وكبيرها، من نبات الأرض الصغير الذي لا ساق له إلى المجرة والنجم في فلك السماء!

فعلى الدارسين في مضمار الإعجاز العلمي، النظر الدقيق في تحليل ألفاظ المشترك المتنوع الدلالة، وفهم دلالتها من السياق، وما تكشف عن إشارات علمية دقيقة.

ومن شواهد ذلك في الإعجاز العلمي قوله تعالى: ^١بِجَبْرِجَ تَجَرَّ [الروم] و"أدنى" في اللغة: من "دنا الشيء من الشيء دُنُوًّا ودَنَاوَةً: قَرَبَ... وَيُقَالُ: دَنَا وَأَدْنَى وَدَنَى إِذَا قَرَبَ ... وَالْأَدْنَى: السَّفْلُ. أَبُو زَيْدٍ: مِنْ أَمْثَالِهِمْ كُلُّ دَنِيٍّ دُونَهُ دَنِيٌّ" (ابن منظور، ١٤ / ٢٧١-٢٧٣)

فأدنى من المشترك اللفظي، وقد تتبع عالم الإعجاز العلمي الدكتور زغلول النجار دلالات كلمة "أدنى" في كتابه الأرض في القرآن الكريم، فتتبع الآيات التي ذكرت فيها كلمة "أدنى" فوجدها تصل إلى خمسة معانٍ في سياقاتها المختلفة، بمنهجية علمية راسخة. (ينظر: النجار، زغلول. الأرض في القرآن الكريم ٢٨٠) من ذلك أنها ترد بمعنى "أقرب" وترد بمعنى "أخفض" ثم عرض كلام المفسرين المتقدمين حول دلالة الكلمة في سياق آية سورة الروم، ووجد أنهم يرون دلالتها بمعنى "أقرب"، وهو معنى يحتمله سياق الآية، فقد كانت منطقة الأغوار بالبحر الميت، التي تحدث عنها القرآن وقت نزوله، ووقعت فيها المعركة بين الروم والفرس؛ وهي أقرب بلاد الروم إلى فارس وإلى بلاد العرب، وإلى ذلك ذهب المفسرون المتقدمون، (ينظر: ابن كثير، تفسير ٣٠٣/٦)

ثم ذكر زغلول النجار أن العلم الحديث في علوم الأرض - وهو متخصص فيه - قد كشف أن أخفض منطقة في العالم هي بجانب البحر الميت، إذ يبلغ انخفاضها حدود ٤٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر (النجار، زغلول. الأرض في القرآن الكريم ٢٨٥) وهي التي دارت عندها معركة الروم مع فارس، وهذا معنى آخر يحتمله السياق القرآني ويتسع له، وهو من إعجاز القرآن الكريم؛ إذ اتسعت معاني ألفاظه؛ لمخاطبة العقول البشرية، في مختلف العصور والأزمنة.

وأحياناً قد يقتضي السياق حمل دلالة المفردة ذات الاشتراك اللفظي، على معنى معين من معانيها؛ ممَّا

يفصح عن الدلالة العلمية الإعجازية المركزية، كما في قوله تعالى: ^٢لَخَلِدَ فِيهَا مَن فَخَرَنَاهُ [الواقعة]

فإنَّ كلمة "النجوم" تحتمل معنيين، أن يراد بها نجوم القرآن، أي أنَّ القرآن نزل مُنْجِماً، وإلى ذلك ذهب بعض المفسرين (أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج: ٦، ص: ٢٦٧)، وتحتمل نجوم السماء في الكون، وهو الذي

رجحه الكثير، "ولعلّ مما يؤخذ على القول الأول أن كلمة (النجوم) لا تستخدم في القرآن الكريم إلا ويراد بها النجوم بمعنى الأجرام السماوية المعروفة، لا بمعنى نجوم القرآن.

ثم إن استخدام مادة التنجيم لنزول القرآن لم توجد في القرآن الكريم، بل الموجود غير ذلك وهو (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) الإسراء: ١٠٦، ولم يقل وقرآنًا نجمناه" (عبابنة، المفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي ٢٠٩). أما القول الثاني فهو الأشهر عند المفسرين، وقد رجّحه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري (الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان ٢٣ / ١٤. تحقيق شاكر). وهو الظاهر أيضاً من كلام ابن كثير (ابن كثير، ٥ / ٧. تحقيق سامي سلامة)، وهذا المعنى مفهوم لدى جيل التنزيل، من نظام هذه النجوم، وهدايتها للسائرين، قال تعالى: ﴿نَمِ نِي﴾ [النحل]

وفي عصرنا الحاضر نفهم إشارات الإعجاز العلمي فيها، من خلال العلم الحديث الذي كشف أنّ ما نشاهده في السماء هي مواقع النجوم لا النجوم نفسها، لبعد المسافة بين الأرض والنجوم بالسنين الضوئية الكبيرة، وأنّه "لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً، ولا بأية وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعات مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكدار والطمس (ينظر: النجار، السماء في القرآن الكريم ١٩٧)

وأما الترادف؛ فالمقصود به عند علماء اللغة: الألفاظ المختلفة التي تدل على شيء واحد. مراعاة معاني الصيغ الصرفية وتنوعها. (انظر: السيوطي، المزهري في علوم اللغة ١ - ٣١٧)

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ علماء اللغة والمفسرين قد اختلفوا في وجود الترادف في القرآن الكريم، وهو أن يوجد لفظان أو أكثر بمعنى واحد، نحو: حضر وجاء وأتى، والذي عليه التحقيق لدى علماء الإعجاز، أنه لا يستقيم القول بالترادف في النص الإلهي الحكيم المعجز، إذ كل لفظة فيه استخدمت في سياقها الدقيق، الذي لا يمكن أن يحل محلها لفظة أخرى، تؤدي المعنى المقصود نفسه؛ وذلك يمثل مظهراً من مظاهر الإعجاز فيه، يقول الإمام الزركشي: " فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الأفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر " (الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج ٤، ص ٧٨)

وإذا كان تحقيق الألفاظ بالقول بعدم الترادف فيها؛ يمثل وجهاً من وجوه الإعجاز اللغوي؛ فهو كذلك في الإعجاز العلمي؛ لأنّ الإعجاز اللغوي هو بوابة العبور إلى دقائق فهم النص المعجز، كما سبق ذكره.

"والآيات الكونية في كتاب الله قد وقع فيها شيء من هذه المفردات، ومن الحكمة أن يتعامل

معها الباحثون بما ترجّح من عدم الترادف، بحيث تُحمل تلك المفردات على دلالات مختلفة" (عبابنة، المفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي ٢٠٤)

ومن مظاهر ذلك في الإعجاز العلمي؛ التفريق العلمي العميق والدقيق بين النور والضياء في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يونس: ٥] وقد بحث ذلك بعض علماء الإعجاز العلمي. (ينظر: النجار، زغلول. السماء في القرآن الكريم ٥٠١. والطائي محمد باسل، أساسيات في علم الفلك والتقويم ١٥٨)

وكذلك الفرق بين فعلي "ألقى" و"أرسى" في الحديث عن الجبال، في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [النحل: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَفِثَ﴾ [النازعات: ٣٢] كما بحث ذلك عالم الإعجاز العلمي الدكتور زغلول النجار، في كتابه الأرض في القرآن الكريم (ينظر: النجار، زغلول. الأرض في القرآن الكريم ٢٥٢). وبهذا تكون دراسات الإعجاز العلمي؛ رديفاً مؤكداً لمقولات الإعجاز اللغوي، في نفي الترادف في القرآن، وإبراز إحكامه في دقة الاختيار.

٤- الصيغ الصرفية وتنوعها:

تعد معرفة الصيغ الصرفية في صيغتها ووزنها، وتنوعها في الاشتقاق، والإفراد والجمع، والتذكير والتأنيث، من الضوابط المهمة لفهم دلالات ألفاظ القرآن، فمجيء الصيغة وفق تصريف معين يكشف عن دقة دلالتها، وهو ما ينبغي معرفته لدى علماء الإعجاز العلمي؛ لفهم تفسيرها العلمي، فباختلاف الصيغة ستختلف الدلالة تبعاً لذلك.

ومن شواهد ذلك في الآيات الكونية في القرآن الكريم، ما ورد على صيغة "تَفْعَلُ" الدالة على التكلف والصعوبة والثقل، بما توحى به الصيغة في اشتقاقها ووزنها، وثقلها في الأداء الصوتي، في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ففي المفردة القرآنية "لَمْ" دلالة الثقل التكلف من صيغتها الصرفية.

ومن "وجهة نظر العلوم الطبية فقد ثبت أن التصعد المستمر إلى طبقات أعلى في السماء؛ يؤدي إلى حدوث اضطرابات عديدة في أجهزة مختلفة، منها الجهاز التنفسي. فالصعود المستمر إلى طبقات الجو العليا يؤدي إلى ضيق حسي، نتيجة تورم الشعب والرئتين الناتج عن تبخر الماء في أنسجة الجسم كلها، بما في ذلك الجهاز التنفسي. ويسبب ذلك ضيقاً شديداً في حجم الرئتين فينقص حجم الهواء الذي يمكن تحويله إلى أن يندم تماماً" (ينظر: كارم السيد، الإشارات علمية في القرآن الكريم ٤٥١).

ومن ذلك ما ورد في الآيات الكونية من صيغة " ذلول" في وصف الأرض، من قوله تعالى: □□□□ يم يَّ [الملك: ١٥] ولم يقل: مُذَلَّلَة، وذلك لفارق الدلالة اللغوية والعلمية في الصيغتين، فصيغة "ذلول" على زنة فعول، وهي من صيغ المبالغة، وأمَّا مُذَلَّلَة، فلا تزيد أن تكون صيغة اسم مفعول، وبينهما بون شاسع في إحياء المعنى؛ تكشف عنه حقائق العلم الحديث، من صور التذليل الكبيرة والكثيرة، التي لا تعد ولا تحصى، من تسخير الله هذه الأرض؛ لتكون كذلك.

٥- مراعاة الدلالة النحوية في التركيب والإعراب وحروف المعاني:

ومن شواهد ذلك قوله تعالى: **جَمَّ جَمًّا خَمَّ خَمًّا سَمًّا سَمًّا** [فصلت: ٣٧] فَإِنَّ
الناظر في سياق النظم الحكيم، يرى أنه أعاد الضمير الجمع في " **خَلَقَهُنَّ** " على أقرب مذكور وهما الشمس
والقمر، وكان مقتضى الظاهر أن يعود عليهما الضمير بالتنثية فيكون " **خلقهما** " وهذا يقتضي التأمل البياني
للسياق القرآني، ودقائق إشارات الإعجاز العلمي.

وقد وقف المفسرون عندها قديماً، فذكروا أنَّ ضمير الجمع يعود على كل ما سبق ذكره من الليل والنهار والشمس والقمر؛ فناسب إرجاع الضمير عليها بالجمع " خَلَقَهُنَّ " (ينظر: الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان ٢١ / ٤٧٤. تحقيق شاكر) وهو تأويل يحتمله السياق القرآني، وتكون " ال " في الشمس والقمر هنا دالة على العهدية، أي: الشمس والقمر المعروفين لكم.

وإذا نظرنا إلى قاعدة أنَّ الضمير يعود على أقرب مذكور في السياق، فتتطبق هنا على الشمس والقمر، في سياق النهي عن السجود " لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ "؛ ودعوة القرآن للسجود لله وحده، بقوله: "وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ" يلفتنا النظم المعجز إلى الشمس والقمر في المنظور العلمي، وعظمة الخالق في خلقهن بضمير الجمع، وهو ما كشف عنه العلم الحديث من أنَّ هناك شمساً وأقماراً عدّة في مجرات الفضاء. (ينظر: حسب النبي، منصور. الكون والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ١٥٧)، وتكون " ال " هنا لدلالة الجنس، أي جنس الشمس والأقمار جميعاً. وبهذا فإن الآية الكريمة في هذا السياق؛ تمثل إعجازاً لغوياً وعلمياً معاً. (ينظر: حسب النبي، منصور. الكون والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ١٥٧).

وتبرز أهمية معرفة حروف المعاني في فهم النص القرآني؛ للكشف عن دلالاته العلمية والإعجازية، إذ تؤدي هذه الحروف وظيفة دلالية دقيقة وعميقة، تلفتنا لعمق فهم الإعجاز والوقوف عليه، ومن شواهد ذلك في الآيات الكونية ما نجده في قوله تعالى: ﴿لَخَلِخْلِيلُهَا مَجْجِدٌ مُّجِيزٌ خِزْنُهَا﴾ ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ بُطُونِهَا بِأَقْتَابٍ وَيُخْرِجُهُمْ بِأَقْتَابٍ﴾ [النور: ٤٣]

فإننا نجد النص القرآني المعجز في حديثه عن تكون السحب في السماء، ونزول الماء، قد استخدم الحرف " ثَمَّ " مرتين (ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا) وهذا الحرف في دلالاته اللغوية يدل على الترتيب مع التراخي الزمني، وهذه الدلالة يستعين بها الدارس للإعجاز في ضبط المعنى وفهم الإشارة العلمية في الآية من خلال كشوفات العلم الحديث إذ "أشار علم الارصاد إلى بداية التكوين في قوله تعالى: (ألم تر أن الله يزجي سحاباً) السحاب الركامي يبدأ بأن تسوق الرياح قطعاً من السحب الصغيرة إلى مناطق التجميع Convergemce - Zome يؤدي سوق قطع السحاب لزيادة كمية بخار الماء في مسارها - وخاصة حول منطقة التجمع - وهذا السوق ضروري لتطور السحب الركامية في مناطق التجميع" (الزنداني، الإعجاز العلمي في وصف السحاب. مجلة الإعجاز العلمي. مكة المكرمة. ع ١ ص ٦٨ - ٧٢) .

"والتأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة، بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلفة الكهربائية حتى يتجاذب في الجو، ولكي تتم هذه الخطوة، وهي الانتقال من مرحلة الإزجاء لقطع السحب إلى مرحلة التأليف؛ يحتاج الأمر إلى وقت؛ لذلك نرى أن الحرف الذي استعمل في القرآن للدلالة على

هذه العملية هو حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي في الزمن" (الزنداني. ص ٧٣). وعامل ركم السحاب الذي يكون بالنمو الرأسي لنفس السحابة، هو العامل الرئيس في هذه المرحلة، وأن الانتقال إليه من المرحلة السابقة يحتاج كذلك إلى زمن، لذلك كان استعمال حرف العطف الدال على الترتيب مع التراخي في الزمن وهو حرف العطف ثم.

ونلاحظ أيضا في سياق الآية نفسها مجيء حرف الجر (من) ثلاث مرات متتالية، (نَحْنُ وَمِنْهُمْ) هم □ (ي) من السماء، من جبال، من برد، ولكي نتعمق في فهم الإشارة العلمية، لا بد من فهم الدلالة اللغوية هنا، وهو أنّ الأولى لدلالة الابتداء، فبداية نزول الماء ومصدره من السماء من طبقات الجو، فكل ما ارتفع فهو سماء، والثانية للتبعيض، أي من بعض هذه الجبال، من السحب الركامية ينزل البرد، وتكون (من) الثالثة بيانية؛ لبيان هذا المنزل وهو البرد، وهذا يوافق تماما الدلالة العلمية في حقائق العلم الحديث، من علم الأرصاد وتكون السحب في طبقات الجو.

المبحث الثاني: التطبيق والتحليل.

سأعرض في هذا المبحث نموذجين تحليلين لآيتين من الآيات الكونية، اللتين فسرهما بعض الدارسين من علماء الإعجاز العلمي المحدثين؛ لنقف على الطريقة التي انطلقوا منها؛ لفهم الآيتين وفق الاكتشافات العلمية الحديثة، ومناقشة ذلك من منظور التحليل اللغوي في الأسس الضابطة. ونظرا لأن هذه الورقة العلمية محدودة العرض والمجال؛ فسأقتصر على هذين النموذجين فحسب؛ النموذج الأول من التفسير العلمي غير المقبول، والنموذج الثاني من التفسير العلمي المقبول.

المطلب الأول: نموذج للتفسير العلمي غير المقبول.

من ذلك التفسير العلمي لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [الحجر: ٢٢]

إذ انتشر الحديث كثيرا عن هذه الآية في مواقع الشبكة العالمية وقنوات الفضاء، للعالم المصري في طب الباطنية الدكتور حسام وافي وهو من أساتذة الطب المعروفين. (صحيفة الشرق. <https://al-sharq.com/article/26/03/2024/>)، يشير إلى الإعجاز العلمي في هذه الآية؛ فذكر أن جسم الإنسان السليم لا يستطيع تخزين الماء، وأن فيه أربعة أعضاء تتنبه عند وصول الماء، هي القلب والكبد والكلى والمخ؛ فيخرج الماء الزائد عن حاجته، عن طريق الإخراج والعرق والتنفس، وأن تخزين الماء في الجسم دون إخراج هو مرض، وذكر أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك قبل اكتشاف العلم الحديث، في قوله تعالى: "فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ". وهو بهذا الرأي يؤكد أنّ المقصود بقوله تعالى: " وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ" هو عدم استطاعة الجسم البشري السليم، من تخزين الماء داخله.

وما ذهب إليه الدكتور مخالف لكلام المفسرين، وخارج عن الأسس اللغوية الضابطة لفهم سياق الآية بعمق وتحقيق، ذلك أنَّ من بدیع نظم القرآن أنه استعمل الفعل ” أسقى ” دون ” سقى ” في هذا المقام؛ فقال: “فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ” وليس ” فسقيناكموه”؛ لاختلاف الداليتين في الصيغتين الصرفيتين (فعل وأفعل) ؛ فإنَّ معنى أسقاه: أعد له ما يشرب، وأما سقاه؛ فقد ناوله ما يشرب؛ لذلك امتن الله على أهل الجنة بقوله: □ □ □ جرحاً [الإنسان: ٢١] فقد باشرهم السقاء لمزيد التكريم والنعيم، ومنه قوله تعالى : “فَسَقَى لَهُمَا” القصص ٢٤ وقوله تعالى: ” أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ” يوسف ٤١.

فلما جاء النظم الحكيم بقوله: “فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ” دل على عموم السقيا، وأنه أعد ما يشرب لهم ولأنعامهم وأرضهم، ولو قصد شربهم هم على وجه الخصوص؛ لكان ” فسقيناكموه” كما أشار إليه الإمام الطبري، رحمه الله. (ينظر: الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان ١٧ / ٨٨. تحقيق شاكر) فالعرب تقول: سقيته، إذا ناولته ما يشرب لسقيه هو، وتقول: أسقيته، إذا أسقيت أرضه وماشيته.

يقول ذو الرُّمَّة وهو من عصر الاحتجاج (ديوان ذي الرُّمَّة. ص ٢٣):

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَأَقْتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْنُهُ تُكَلِّمُنِي أَحْبَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

وقد كانت العرب تضع أمام دورها الماء في الخواوي؛ لمن يمر فيشرب؛ فيقال: أسقاه، أي: جعل له شرباً. فإذا طرق عليهم طارق الباب وطلب الماء؛ فأعطوه، قالوا: سقاه. وهذا رأي جمهرة من أئمة اللغة منهم أبو عبيدة وسيبويه وأبو علي الفارسي. (انظر: المثنى، أبو عبيدة معمر. مجاز القرآن ١ / ٣٥٠. وسيبويه، الكتاب ٥٩/٤).

لذلك يجب أن ينطلق دارس الإعجاز في فهم دلالات النص القرآني، من فهم دلالات ألفاظ اللغة، وتراكيبها الدقيقة في السياق، سباقه ولحاقه؛ فاللغة مفاتيح الإعجاز؛ والعجز عن إدراك دقائقها؛ عجز عن إدراك حقائق الإعجاز!

وما ذهب إليه الدكتور من أنَّ هذه الآية تدل دلالة حصرية على إنزال الماء للبشرية؛ لشربه، وأن في الآية إعجازا علميا، يشير إلى أن الجسم لا يخزن الماء بعد شربه؛ ويتخلص منه مباشرة؛ دفعا لضرر تخزينه، وأن هذا مدلول قوله تعالى: “وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ”؛ لا يستقيم؛ إذ لو كان مدلول الآية ذلك لورد الفعل “فسقيناكموه”.

فالبيان القرآني يستعمل كل صيغة في سياقها المناسب لها، لمعنى مخصوص، ولأنتاب في الصيغ الصرفية والمباني، في محكم معجز البيان، ومنه استعمال ” سقى ” و ” أسقى ” في هذا المقام.

16

وذهب بعض المحدثين من المفسرين، وعلماء الإعجاز العلمي إلى أن الآية الكريمة متعلقة بمشاهد الدنيا (القاسمي، محاسن التأويل ٥٠٨/٧، الشعراوي، معجزة القرآن ٥١)، ذلك أنها تشير إلى حقيقة عظيمة لم تكن معروفة فيما مضى، وهي أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها وحول الشمس؛ فإن الناظر إلى الجبال يحسبها جامدة ساكنة لأول وهلة، لكنها في حقيقتها تمر مروراً شبيهاً بمرور السحاب وتقلعها، مع أن الناظر إليها يراها كأنها في مكانها تملأ السماء؛ فكذا الجبال متحركة مع الأرض لكونها جزءاً منها.

ولم يرق لابن عاشور كلام المفسرين المتقدمين حول نظم الآية وأنها من مشاهد يوم القيامة، فقال: "وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْمُفَسِّرِينَ شَقَاءٌ لِيَبَيِّنَ اخْتِصَاصَ هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ الرَّأْيَ يَحْسِبُ الْجِبَالَ جَامِدَةً، وَلَا بَيَانَ وَجْهِ تَشْبِيهِ سَيْرِهَا بِسَيْرِ السَّحَابِ، وَلَا تَوْجِيهِ التَّذْلِيلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) فَلِذَلِكَ كَانَ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَضْعٌ دَقِيقٌ، وَمَعْنَى بِالتَّأْمُلِ خَلِيقٌ" (ابن عاشور، التحرير والتنوير ٥٠/٢٠) ثم رجح من جهة السياق أنها من مشاهد الدنيا، الدال على حركة الأرض، وأنها إشارة للإعجاز العلمي بقوله: "وَهَذَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أُودِعَ فِي الْقُرْآنِ لِيَكُونَ مُعْجَزَةً مِنَ الْجَانِبِ الْعِلْمِيِّ" (ابن عاشور، التحرير والتنوير ٥٠/٢٠)

ومن علماء الإعجاز العلمي من فسر التشبيه في الآية من منظور علمي؛ بأن السحاب لا يمر من تلقاء نفسه، وإنما تسوقه الرياح، فهو محمول على الرياح، كذلك الجبال حركتها من حركة الأرض المحمولة عليها، لا من حركة ذاتية؛ لهذا فالجبال تمر مر السحاب، "فما أروع التشبيه وما أعمق الإشارة إلى حركة الأرض، وهي تحمل معها الجبال، بأسلوب قرآني معجز لا يصدم العامة في إحساسهم بعدم حركة الأرض، ولا ينافي في الوقت نفسه الحقيقة الكونية، التي وصل إليها العلم الحديث " (حسب النبي، منصور. الكون والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ١٥٦)

ويظهر أن ما ذهب إليه دارسو الإعجاز العلمي المحدثون؛ تؤكد الأسس اللغوية في السياق، فمن حيث الاتصال والتناسب في الآية مع ما قبلها؛ فإنه وإن جاءت عقب آية تتحدث عن النفخ والبعث في قوله تعالى:

﴿مِمَّنْ خَرَجْنَا فِي مَقَادِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيًا وَالْخِزْيُ الَّذِي يُنْفَخُ فِي الْوُجُوهِ لَهُ مَنَاقِبُ يُدْرِكُ أُولَٰئِكَ يَخْرُجُونَ﴾

﴿مِمَّنْ خَرَجْنَا فِي مَقَادِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيًا وَالْخِزْيُ الَّذِي يُنْفَخُ فِي الْوُجُوهِ لَهُ مَنَاقِبُ يُدْرِكُ أُولَٰئِكَ يَخْرُجُونَ﴾ [النمل] فهذا من أساليب القرآن الكريم، أن يذكر مشهداً من مشاهد الحياة والكون المرئية الشاهدة على القدرة والصنع والإبداع؛ ليؤكد بها مشاهد الغيب ويرسخها في نفوس المتلقين لذلك، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَخْرُجُ فِي الْوُجُوهِ الْخِزْيُ الَّذِي يُنْفَخُ فِي الْوُجُوهِ لَهُ مَنَاقِبُ يُدْرِكُ أُولَٰئِكَ يَخْرُجُونَ﴾ [الأعراف:

٥٧] فقد استدل بظاهرة كونية مشاهدة محسوسة على تأكيد البعث وترسيخه في النفوس.

ثم إنَّ السباق في سياق الآية قبلها حديث عن ظاهرتين كونيتين هما الليل والنهار في قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ خَرَجْنَا فِي مَقَادِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيًا وَالْخِزْيُ الَّذِي يُنْفَخُ فِي الْوُجُوهِ لَهُ مَنَاقِبُ يُدْرِكُ أُولَٰئِكَ يَخْرُجُونَ﴾ [النمل] فكأن آية النفخ والبعث وقعت معترضة بين آيتين كونيتين تتحدثان من مشاهد الحياة والإعجاز؛ لتثبت حقيقة البعث والنشور بحقيقتين علميتين من مشاهد الكون.

وإذا نظرنا في دلالات المفردات في السياق؛ سنجد دلالة الفعل المضارع " ترى " فيه معنى الحدوث والتجدد في الرؤية، بحاسة العقل والتأمل والعلم، وهي أعمق وأدق وأثبت في النفس، "ثمَّ إِنَّ مفردة (تحسبها) هي في الحقيقة متعلقة بالفعل الذي قبلها (ترى)، والمسوّغ نحواً اعتبار (تحسبها) بدلاً من (ترى)، أو حالاً من ضمير (ترى) أي: أَنَّ الرائي يراها لحظة ما يراها في هيئة الساكنة؛ وهو في الحقيقة ظن؛ فالواقع خلافه، فالرائي يراها جامدة، والحقيقة أنها تمر. وفي هذا إشارة إلى أَنَّ الآية تقرر حقيقة حركة الأرض، لا حقيقة تحوّل الجبال في الآخرة" (عبابنة، المفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي ٢٠٢).

ثمَّ إِنَّ مشاهد الآخرة حقائق لا ظن فيها ولا حساب، خصوصاً في مقام التهديد والتهويل من نفس الجبال ودكها، وأما من يستدل على ورود الحساب في سياق الآخرة بقوله تعالى في وصف الولدان: ^١هم ^٢كم ^٣□ □ □ سم □ □ □ [الإنسان] فإنَّ هذا غاية الوصف في المبالغة في التشبيه، إذ يحسبهم الرائي لحسن جمالهم وانتشارهم كاللؤلؤ المنثور، وهذا حاصل في مقامات المبالغة والتشبيه؛ خلافاً لمقامات الهول والوعيد؛ فإنَّ الظن فيها والحساب؛ خفوت للصورة في الأذهان!

وأما كلمة (جامدة) فهي بمعنى ساكنة، كما قال الزمخشري: "ساكنة من جمد في مكانه إذا لم يبرح" (الزمخشري، ٣/ ٣٨) وبهذا المعنى تتسق وتنسجم مع المفردة المقابلة لها وهي (تمر) إذ لو كانت بمعنى جامدة متلاحمة عكس مفتتة؛ لما انسجمت مع لفظة (تمر).

وفي المفردة (تمر) تأكيد للإعجاز العلمي في الآية؛ كما يقول جمال الدين القاسمي: "هذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض، ومرور الجبال معها في هذه النشأة. وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة، وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام" (القاسمي، ٥١٠/٧)

وأشارت الآية الكريمة في ختامها إلى دقة صنع الله وإتقانه، بقوله تعالى: ^١هم ^٢يحيي ^٣□ □ □ [النمل: ٨٨] وهذا التذييل في بديع نظم الآية؛ إخبار عن إحكامه الخلق سبحانه؛ وأن هذا الكون صنعه الله على هيئة عظيمة متقنة، من خلقه الجبال المحمولة على الأرض؛ تتحرك بحركتها، في اتزان دون اضطراب، ودون أدنى شعور بحركتها؛ فمن أنقن ذلك بشواهد الآيات في الكتاب المقروء، وحقائقه العلمية المشاهدة في الكون المنظور؛ هو الخالق القادر على البعث والنشور، ^١□ □ □ □ [النمل: ٨٨] وهذا التذييل في إبراز عظمة الصنعة والإتقان؛ يتناسب مع سياق مشاهد الحياة والانتشار، لا مع مشاهد انتهاء الكون والاندثار.

الخاتمة وأهم النتائج:

توصل الباحث بعد هذه الرحلة العلمية بين علاقة الإعجاز اللغوي بالإعجاز العلمي، من حيث الضوابط والتحليل، إلى أهم النتائج، هي:

- أن الإعجاز العلمي لا ينفك بحال عن الأسس اللغوية التي تعين على فهم النص القرآني بدقة وعمق، والابتعاد عنها أو الجهل بها؛ مدعاة للشروء في فهم النص القرآني دون ضابط أو قيد، وذلك ما تبين في البحث من خلال عرض الضوابط والتحليل.
- العلاقة وشيجة ومتلاحمة بين الإعجازين، اللغوي والعلمي، وكل منهما، يرفد الآخر بروافد علمية، فالعلمي قد يؤكد بعض الظواهر اللغوية كما هو الحال في نفي الترادف بين المفردات، وتأكيد الفروق بينها، من منظور العلم الدقيق، في نحو: النور والضياء، و " ألقى " و " أرسى " فقد بحث ذلك علماء الإعجاز العلمي. وبهذا تكون دراسات الإعجاز العلمي؛ رديفا مؤكدا لمقولات الإعجاز اللغوي، في إبراز إحكام النص القرآني في دقة الاختيار، وبالمقابل فاللغوي يضبط تحليل النص المعجز، وطرق فهمه.
- أهمية الدراسات البينية بين وجوه الإعجاز المختلفة؛ فهي تفتح أفق الفهم السديد، والنظر الدقيق؛ لاستكشاف إعجاز النص الإلهي، وسبر أغواره.
- أوصي بقيام الندوات والمؤتمرات، والدراسات العلمية المشتركة والمتنوعة، في وجوه الإعجاز اللغوي والعلمي، والنفسي، والتاريخي والتشريعي..؛ لأن ذلك سبب لتلاقح الأفكار، ومقابلة العقول والأفهام؛ فلا يكتفى الباحث على اختصاصه، دون معرفة فضاءات العلوم الأخرى في الإعجاز؛ فهو علم العصر ولغة الخطاب.

المصادر والمراجع:

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. القاهرة. دار الكتاب العربي .
- ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير. الدار التونسية. تونس ١٩٨٤هـ
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة. السعودية. دار طيبة. ١٩٩٩ م
- ابن منظور، أبو الفضل محمد. لسان العرب. بيروت. دار صادر. ١٤١٤هـ
- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن
- - الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق. القاهرة. دار المعارف.
- -التفسير البياني للقرآن الكريم. دار المعارف - القاهرة .
- الجعفري، عمار. الانحراف في التفسير المعاصر. أطروحة دكتوراه. بغداد. كلية العلوم الإسلامية. ٢٠٠٢ م .
- حدّيق، العيد. جهود أهل السّنة والجماعة في الإعجاز اللغويّ والبيانيّ للقرآن الكريم. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. ٢٠١٠
- حسب النبي، منصور. الكون والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دار الفكر العربي. ١٩٩٦
- حوبان، خديجة. الإعجاز اللُّغويّ والعلميّ للمُفردات القرآنيّة. مجلة الصوتيات. المجلد ١٧ عدد ٢. جامعة البليدة ٢. الجزائر. ديسمبر. ٢٠٢١
- دكّ الباب، جعفر. الوجيز في المنهج المعين على كشف أسرار اللّسان العربيّ المبين. الأهالي للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق. ١٩٩٠

- ذو الرمة، غيلان بن عقبة. ديوان ذي الرمة. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٩٥
- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. سوريا. دار إحياء الكتب العربية. ١٩٥٧
- الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
- الزنداني، عبد المجيد.
- الإعجاز العلمي في وصف السحاب. مجلة الإعجاز العلمي. مكة المكرمة. العدد الأول
- الإعجاز العلمي تأصيلاً وفهماً. مجلة الإعجاز العلمي / هيئة الإعجاز العلمي - رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة ١٤٠ يوليو ١٩٩٥ م.
- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة. هيئة الإعجاز العلمي مكة المكرمة .
- سقا، مرهف عبد الجبار. التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دمشق. دار محمد الأمين. ٢٠١٠
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ١٩٨٨
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. المزهرة في علوم اللغة. لبنان. دار الكتب العلمية. ١٩٩٨ م .
- الشعراوي، محمد متولي، معجزة القرآن. المختار الإسلامي. القاهرة. ١٩٧٨
- الشهري، محمد ناصر. من معالم العلاقة بين العربية والإعجاز العلمي في القرآن والسنة ٨. مجلة جامعة الملك خالد. المجلد السابع. العدد الأول. ٢٠٠٩
- الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان. تحقيق شاكر. لبنان. مؤسسة الرسالة. ٢٠٠٠ م.
- عبابنة، أحمد إبراهيم. المفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي. مجلة جامعة الشارقة. مجلد ١٥ عدد ٢. ٢٠١٨
- العبدلي، فاروق الشيخ. نظرة علمية للكتب السماوية. دار الكتب والوثائق، بغداد، ٢٠٠٠ م .
- الغماري، أبو الفيض أحمد محمد الصديق، مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية. مكتبة القاهرة. ١٩٨٧
- الفراهيدي، الخليل. العين ت ١٧٥ هـ. تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الهلال للنشر، بغداد ١٩٨١ م .

- القاسمي، محمد جمال الدين. محاسن التأويل دار الكتب العلمية. بيروت .
- القرضاوي، يوسف.
- العقل والعلم في القرآن الكريم. القاهرة. مكتبة وهبة. ١٩٩٦
- كيف نتعامل مع القرآن العظيم. القاهرة. دار الشروق. ٢٠٠٠ .
- كارم السيد، الإشارات علمية في القرآن الكريم. دار الفكر العربي، القاهرة. ١٩٩٥م.
- المثنى، أبو عبيدة معمر. مجاز القرآن. مكتبة الخانجي. القاهرة .
- مهدي، خالد. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. بن يوسف بن خدة. كلية العلوم الإسلامية. ٢٠٢١
- النابلسي، محمد راتب. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. دار المكتبي. دمشق. ٢٠٠٥
- النجار، زغلول.
- الأرض في القرآن الكريم. دار المعرفة. بيروت. ٢٠٠٥
- السماء في القرآن الكريم. دار المعرفة. لبنان. ٢٠٠٧
- حقائق علمية في القرآن الكريم، بيروت. دار المعرفة. ٢٠٠٨
- موقع صحيفة الشرق. <https://al-sharq.com/article/26/03/2024/>